

المتفكر المنهجي

بقلم د. حامد طاهر

المتفكر هو عمل العقل . والعقل هو نعمة الله الكبرى التي منحها للإنسان لكي يستخدمها من أجل تحقيق مصالحه ، ولتعمير الأرض من حوله. لكننا نلاحظ أن معظم الناس لا يرثون أنفسهم في المتفكر ، ويكتفون بمتابعة الذين يفكرون فيما يذهبون إليه . وهذا ينطبق على صنف آخر من الناس يفكرون ولكن بطريقة خاطئة ، فلا يصلون إلى هدف ، ويظلون يتذمرون في مكانهم . أما الصنف الثالث ، وهو المقليل أو النادر فهم الذين يفكرون بطريقة منهجية تنتقل من المعلوم إلى المجهول ، وتخلص من المقدمات إلى النتائج الصحيحة . ولهؤلاء هم الذين يتبعون أسلوب المتفكر المنهجي . فما هو هذا المتفكر ؟ وما هي خصائصه ؟

المتفكر المنهجي له تاريخ طويل . وقد نجح أرسطو في القرن الرابع قبل ميلاد المسيح في أن يضع له علماً خاصاً به ، هو علم المنطق ، الذي يحدد للعقل طرق الخطأ والمصواب ، ويضع في يده ميزاناً دقيقاً لقياس المضاد من حيث الصدق والمكذب ، أوى مطابقتها للواقع أو مخالفتها . ويقوم علم المنطق على ثلاثة مباحث رئيسية : مبحث التعرير والتقطيع الذي يحدد معنى الكلمة المفردة ، ومدى عمومها وخصوصيتها مثل (فرس ، وردة ، بحر .. الخ) ثم مبحث المضاد ، وهي الكلمة إذا أضيفت إلى كلمة أخرى مثل (اليوم بارد) فقد

حكمنا على اليوم بالبرودة . وهنـا يحتمـل أـن يكون هـذا المحـكـم صـحيـحاً أو خـطـأً . ثـم مـبـحـثـ المـقـيـاسـ ، وـهـو يـشـمـلـ المـقـضـيـاـ إـذـا تـعـدـدـتـ وـوـضـعـتـ بـجـوـارـ بـعـضـهـاـ فـىـ قـرـتـيبـ مـخـصـوصـ مـثـلـ (ـسـقـرـاطـ اـنـسـانـ ، وـكـلـ اـنـسـانـ فـانـ ، إـذـنـ سـقـرـاطـ فـانــ)ـ .

وقد ظل هذا المنطق الأرسطي ، أو منهج التفكير القديم مسيطر على البشرية أكثر من ألفى عام ، حتى بدأ مفكرو عصر النهضة في أوربا يثورون عليه ، ويشككون في أساسه ونتائجـهـ ، ثـمـ اـنـتـهـىـ بـهـمـ الـأـمـرـ إـلـىـ إـنـشـاءـ منـهـجـ جـدـيدـ هوـ المـنـهـجـ المـتـجـرـيـبـىـ ، الـذـىـ يـقـومـ عـلـىـ مـلـاحـظـةـ الـظـواـهـرـ ، وـجـمـعـ أـكـبـرـ قـدـرـ مـنـ الـمـعـلـومـاتـ حـولـهـاـ ، ثـمـ وـضـعـ فـرـضـ عـقـلـىـ لـتـفـسـيرـهـاـ ، وـالـقـيـامـ بـتـجـربـتـهـ فـىـ الـمـاـوـقـعـ ، فـإـذـاـ نـجـحـتـ تـجـربـتـهـ أـصـبـحـ قـانـونـاـ عـلـمـيـاـ ، إـنـ فـشـلـ جـرـىـ الـمـبـحـثـ عـنـ فـرـضـ آـخـرـ ، وـهـكـذـاـ حـتـىـ يـتـمـ الـتـوـصـلـ إـلـىـ فـرـضـ صـحـيـحـ يـفـسـرـ الـظـاهـرـةـ ، أـوـ يـحـلـ الـمـشـكـلةـ الـتـىـ تـعـرـضـ الـإـنـسـانـ .

ومنـذـ اـكـتـشـفـتـ الـإـنـسـانـيـةـ هـذـاـ الـمـنـهـجـ أـصـبـحـ هـوـ أـسـلـوبـ التـفـكـيرـ الـمـعـتـمـدـ الـذـىـ يـقـفـ وـرـاءـ الـمـتـقـدـمـ الـعـلـمـيـ ، وـالـحـضـارـىـ بـصـفـةـ عـامـةـ ، الـذـىـ حـقـقـ مـخـلـفـ الـثـوـرـاتـ الـعـلـمـيـةـ الـتـىـ نـشـهـدـ مـنـجـزـاتـهـاـ فـىـ حـيـاتـنـاـ الـمـيـوـمـيـةـ بـدـءـاـ مـنـ الـثـوـرـةـ الـمـصـنـاعـيـةـ حـتـىـ الـثـوـرـةـ الـمـاـلـكـوـنـيـةـ الـحـالـيـةـ ..

إنـ مـقـارـنـةـ بـسـيـطـةـ بـيـنـ الـمـنـهـجـيـنـ الـمـذـكـورـيـنـ تـبـيـنـ أـنـ الـمـنـهـجـ الـأـرـسـطـيـ يـنـظـمـ الـمـعـلـومـاتـ ، وـيـرـتـبـ الـمـقـدـمـاتـ ، وـيـبـيـنـ كـيـفـيـةـ الـمـوـصـولـ إـلـىـ الـنـتـائـجـ الـعـقـلـيـةـ ، بـيـنـماـ الـمـنـهـجـ الـمـتـجـرـيـبـىـ هـوـ الـذـىـ يـأـتـىـ بـمـعـلـومـاتـ جـدـيـدةـ ، وـيـسـاعدـ الـإـنـسـانـ فـىـ الـمـسـيـطـرـةـ عـلـىـ الـطـبـيـعـةـ ، وـالـاستـفـادـةـ مـنـ قـوـانـينـاـ الـثـابـتـةـ أـوـ الـمـنـسـبـيـةـ . وـمـنـ الـعـجـيبـ أـنـ الـنـاسـ يـنـقـسـمـونـ إـلـىـ قـسـمـيـنـ : أـحـدـهـمـ عـقـلـيـتـهـ أـرـسـطـيـةـ ، وـالـثـانـىـ عـقـلـيـتـهـ تـجـربـيـةـ . وـأـنـتـ مـاـلـ يـمـكـنـكـ أـنـ تـتـعـرـفـ عـلـىـ كـلـ مـنـ الـقـسـمـيـنـ إـذـاـ تـحـدـثـ مـعـهـمـ .

فـهـنـاكـ مـنـ يـضـعـ مـسـلـمـاتـ عـقـلـيـةـ ثـمـ يـنـطـلـقـ مـنـهـاـ إـلـىـ أـحـكـامـ عـقـلـيـةـ ، قـدـ تـكـوـنـ صـوـابـاـ أـوـ خـطـأـ ، وـهـنـاكـ مـنـ يـتـمـهـلـ قـلـيلـاـ ، وـيـحـاـولـ أـنـ يـرـجـعـ

دائماً إلى التجربة في الواقع العملي ، ليتعرف منه على صدق آرائه أو خطأها .. القسم الأول يؤكد لك أن الحقيقة مطلقة ، وأنه قد امتلكها ، والقسم الثاني متواضع ، يقول لك إن رأيه الآن صواب ، وقد يحدث في الغد ما يغيره !